



هل المثقف فرع في شجرة الاستبداد؟

د. مصطفى نور الدين

كاتب مصري مقيم في باريس

من اليسير تحديد مفهوم سلطة حاكمة بأنها ديمقراطية أو استبدادية أو غير ذلك، بداية من العلاقة بين الدولة والمواطنين، وإن ظل التحديد نسبياً لأنه قد تتوفر عناصر من مفهوم لا كله. تتجلى العقبة مع مفهوم "مثقّف"؛ فلا يوجد تعريف "جامع مانع" لكلمة. "ثقّف" في القواميس من هو "حاذق، فهم، فطن" وثقّف الشيء تعلمه بسرعة، وهو التآدّب والتهذيب. والمعنى باللاتينية يقترب من العربية فهو العبقرية والتحصيل والفهم عندما يخص كلمة مثقّف.

للدبلوماسيين والعسكريين"، أو مثل "دانتى" الذي عبر عن خجله من أن "مايكل أنجلو" لم تشغله مآسي فلورانس، فرد عليه بأن ما يشغله تماما هو الجمال فحسب، وكان أفلاطون يرى



موريس باريس



اميل زولا

الحاكم المثالي هو "الفيلسوف الملك" أو أن يصبح الملك فيلسوفاً ليتحقق المدالة ويكون حارساً للمدينة.

يمكن القول إن الانحياز هو معيار التفرقة بين مثقف متناضل يسعى للتغيير،

غير أن استخدام الكلمة بدأ في فرنسا في القرن التاسع عشر من قبل المفكر اليميني "موريس باريس" ليهاجم كلا من "إميل زولا" و"أكتاف ماربو" و"أناتول فرانس" لدفاعهم عن "دريفوس" الضابط اليهودي الذي اتهم زوراً بالخيانة العظمى. وهو يتهمهم ويصفهم "بالمثقفين" لأنهم أهل فكر وقلم ولا يفهمون الواقع. ثم تحولت الكلمة لتصبح بالمعنى الجاري الآن. فالمثقف بحسب المفكر "ديدرو" هو من "له حق التدخل حتى فيما لا يعنيه ويهم الغير".

باختصار، المثقف هو من يملك معرفة ومقدرة على فهم عميق للقضايا وتكوين وجهة نظر مستقلة ومتماسكة حولها ويناضل من أجل تحقيقها في مواجهة أية سلطة تمارس العنف بكل أنواعه ضد المواطنين أو ضد الإنسان أينما كان. فدور المثقف هو نقل الوعي وتحويله لفعل ثوري ضد حرب غير عادلة أو انعدام عدالة.

غير أن الواقع يظهر أن علاقة المثقف بالسلطة تتراوح بين الصمت السلبي بالملاحظة أو بالانحياز للتبرير أو الاندماج للمساهمة في تشييد النظام كجزء منه بدرجة مختلفة في الكيف، فالكاتب أو المفكر قد يتخذ توجهها مثل "جوته" الذي قال: "اتركوا السياسة

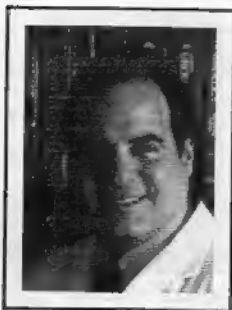
ومثقف يرى أن ما هو قائم هو أفضل ما يكون برغم ما قد يكون فيه من مظالم. فنحن لا نملك حق نفي صفة مثقف عن شخص لأنه انحاز للدولة أو السلطة القمعية، ولكن نعتبره جزءاً منها طبقاً وفكرياً وأداة من أدواتها. هو يدخل هيمن يسمون "كلاب الحراسة" إذا استعمرنا المفهوم الذي استعمله عام ١٩٣٢ "بول نيزان" وهو عنوان كتابه. وإذا ذهبنا مع الحكم عليهم بكلمات "جوليان باندا" عام ١٩٢٧ نتكلم عن "خيانة المثقفين" وهو عنوان كتابه الذي ينتقدهم لتخليهم عن قيم عليا كان من المفترض أن يدافعوا عنها. ويمكن الذهاب أبعد من اللوم بالإدانة عندما يرتبط المثقف بنظم متسلطة وإجرامية. ففي فرنسا، مثلاً، اشتهرت أسماء خادمة للدولة مثل "باريس" و"موراس" و"بيجي" في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية كان التمزق على صعيد الأسرة ذاتها، فالبعض ساند نظام "فيشي" المتعاون مع المحتل النازي ومنهم كتاب عظام بالمقياس الأدبي والفكري. ووضعت "اللجنة الوطنية للكتاب" على القائمة السوداء الكثير من هؤلاء (منهم "بيير داريو لاروشيل" الذي اختار الانتحار بدلاً عن مواجهة المحاكمة الثورية

بعد تحرير فرنسا، بينما تم إعدام كل من "روبير باريزياك" و"جورج سواريز" و"بول كلارك" وغيرهم). وهناك أيضاً أسماء مثل "أيزرا باوند" و"شتاينبك" و"دوريل" فمن هؤلاء من انحاز لأيديولوجيات نازية أو إمبريالية أو كجاسوس للدولة.

وفي المقابل نجد المثقف بمعنى الانحياز المقاوم على مدى التاريخ والمجتمعات ولا حصر لهم، بداية من الفلاح الفصيح وسقراط وصولاً إلى إيرازم وفولتير والكواكبي وبيرم التونسي وأبو القاسم الشابي وكانت وزولا وأنتول فرانس وماركس واتجلز وجينيه وبلانشو وياتي وسارتر ومارلو وراسل وفوكو وموران.

والسؤال هو هل يمكن للمفكر أو الكاتب أخذ مسافة عن الواقع والابتعاد عنه ويكون متسقاً مع ذاته، برغم ما يحمله من مأس وحروب وانعدام عدالة؟ فالكاتب والمفكر يقدمان رؤية للمجتمع والحياة بموضوعية أو بنظرة خيالية وربما مثالية تتضمن انتقادات ضمنية لتجاوزها لعدم الرضا عنها. وبالتالي فهو مشتبك مع المجتمع بالفكرة وقد يتجاوز التعبير بالممارسة لتغيير هذا الواقع. فمثلاً، مسرح موليير وشكسبير وروايات بلزاك وهوجو تعكس الانشغال بالإنسان

ميلز" يمكن تسميتهم بالثخبة، هو عنوان لأحد كتبه. ويستخدم بيير بورديو تعبيراً آخر عندما يتكلم عن "نبلاء الدولة". هؤلاء ليسوا بمتقنين انضموا بعد فترة تعلم وتحصيل للمعرفة بالدولة بل هم



جورج سواريز



بول كلارك

الثلاث

٤١
٣
٥
٢
يعدون أنفسهم داخل "مدارس كبرى" معنية بصناعة عقول تدير الدولة وأجهزتها. تديرها من السياسة إلى الإدارات بكل تفرعاتها وفي كل المجالات. ففي البلدان الرأسمالية الكبرى يتم

والمجتمع والسلطة ولا تتحاز للأخيرة بل للإنسان دوماً مباشرة أو عبر الإبداع والخيال.

ويحصر المسألة بصورة أضيق لتخص الكتاب والمفكرين وحدهم فأحد أوجه المشكلة فيما يخص محاسبتهم إن صح القول مزدوجة. فهي أولاً تتعلق بكتاباتهم التي هي صفتهم الجوهرية. فالتوقف عند كتاباتهم قد يجعل منها إضافة فريدة في الثقافة ولكن هل هذا يبرر غض النظر عن "حيادهم" أو تطهيرهم للنظم المتسلطة أو الصمت عليها والاندماج في مؤسساتها واعتبار ذلك انحيازاً بريئاً؟

إن علاقة المثقف بالسلطة تتحدد بداية لنظريته الفكرية للمجتمع المنشود لتحقيق القيم التي يرى فيها النموذج للمجتمع "الأمثل" أو أن هناك إستراتيجية لتحقيق هذا المجتمع في الأجل الطويل. وهذا المجتمع الأمثل يراه البعض محكوماً بالنظام الصارم وسلطة مطلقة للحاكم بينما يراه غيرهم دكتاتورية طبقية، وغيرهم حكم الشعب بنفسه لنفسه، وكل النماذج المتراوحة بين اليوتوبيا والواقع.

إن ذلك يقودنا للقول إن من المثقفين أصحاب "الياقات البيضاء" بحسب تعبیر عالم الاجتماع الأمريكي "س. رايت

الاستعانة بالخبراء في مجالات المعرفة ولا يمكن النظر لهؤلاء كما لو كان دورهم محايدا فهم يقرون ضمنا بالنظام القائم ويعملون على الوصول به إلى تمام الإتقان الوظيفي.

هؤلاء النبلاء منهم فلاسفة وغيرهم خبراء في الاقتصاد والاجتماع والاستراتيجية وغير ذلك. لهم هوية مزدوجة من جانب من حيث الكفاءة الفكرية، ومن حيث الدور المحدد الذي تم اختيارهم له من البداية بالاندماج في الدولة وتقديم كفاءتهم للأغراض التي حددتها بتقديم أنجع السبل لتحقيقها دون تفجر إثارة أو صراعات اجتماعية وسياسية حادة يصعب التحكم فيها. يمكن المقاربة بين هؤلاء وبين من أرسلتهم الدولة المصرية خاصة منذ محمد علي إلى بعثات أوربية لوضع ما حصلوه من معارف في خدمة بناء دولة حديثة.

نحن إذن أمام اختيار وانحياز إراديين إلى (المجتمع أو الدولة). فمن يختار المجتمع والمواطن كأولوية في مواجهة الدولة هو المثقف الذي تضاف له صفة تميزه بأنه "ملتزم" أو "عضوي". الآخرون الذين اختاروا أو انحازوا للدولة ولنظامها مهما كانت طبيعته السياسية فهم جزء من جسدها وعقلها.

في الثقافة المعنوية بين التفكير والاشكال

الإشكالية الخاصة بمصر متجسدة في الارتباط المعنوي بين الثقافة والفكر والدولة. فالدولة هي التي تصنع وسائل نشر وتوزيع وتمويل الإبداع أحيانا. هذه الوضعية تضع المثقف في حالة تبعية وبحث عن مكانة أو اعتراف يروج مشروعه الخاص مقابل تنازله عن مواجهتها.

ولكن القضية تأخذ بعدها الأعمق ليس في ممارسة القمع الرسمي للدولة فحسب وإنما في التلاعب بالمعقول الذي يمارسه من انحاز من المثقفين للسلطة. هذا التلاعب لتلك الفئة هو الذي ضمنه "جورج أورويل" في رواية "١٩٨٤" بوضوح وبموازاة لقهر النظام. فالمثقفون يطبقون فيما بينهم وعلى أنفسهم تلك الفلسفة الشمولية المتحكمة في الفكر. هم يتهجمون يسعون للاستئثار بسلطة داخل السلطة وإن ظلت دوما تابعة للسلطة المهيمنة وأداتها.

فالاستبداد ليس فقط هيمنة بوليسية وعسكرية على مجتمع ولكن يدعمها هيمنة ثقافية إيديولوجية لا تلمبها أجهزة الدولة العنيفة وحدها ولكن أجهزة ناعمة في الإعلام والصحافة والفكر الدعائي والفن. وتلك الوسائل هي المدعومة بمثقفين يقتنون لها وبينون فكرها التلاعب بالمعقول والسوغ لكل

بمحاسنه في ظل انهيار شبه كامل لكل
الأنشطة المنتجة وتدهور التعليم والصحة
والعمران وتقشي الفساد.

هذه العلاقة تجسّد لتخلي المثقف عن
دوره واندماجه في ذات الماكينة السياسية
التي تصنع النظام المتسلط. فكلمًا



موليير



شكسبير

الانتهاكات تحت مسميات لا حد لها من
الوحدة الوطنية والأمن واستقرار النظام
والسلام الاجتماعي أي إدانة كل معارضة
للتسلط كمارسة.

لم تتح الفرصة في التاريخ الحديث
والمعاصر لتحقيق انفصال فعلي للمواطن
عن الدولة. فلا تزال هي التي تتولى
غالبية الشؤون المهمة في الحياة. بجانب
أن البناء الاجتماعي من الأسرة للدولة
وما بينهما يتسم بذات الطبيعة الهرمية
للسلطة تنعكس على الأدوار والوظائف
ودرجات التبعية والخضوع. فالكاتب أو
المفكر يعرف الحدود المسموح بها من
رقابة المجتمع والدولة. فاللفة "نقية
طاهرة" والأفكار تتخفى خلف الزميرية
وآليات البلاغة وازدواجية التأويل
ليتمكن "المارق" من الهروب من العقاب
إن تمكن. فلم تحدث للثقافة نقلة تضمن
التحرر الكامل للمبدعين.

كل هذا يجعل الكاتب والمفكر
"يتحسس" فكره قبل أن يجسده. فهو
يراعي الدولة لكي تراعيه، وعندما يأخذ
منها موقفًا نقديًا عليه عمل حسابات
المكسب والخسارة. هي صنفته وهو
يحافظ على شكلها وعلى مضمونها.
علاقة تتسم بالنفاق من طرفه والقهر
من جانبها. ربما أسمى تجليات تلك
العلاقة المختلفة يتجسد في مدح الزعيم
الفرد عبر كل العصور والإشادة

الآلاف

أسيفت الدولة عطاياها على أهل القلم
احمرت خدودهم خجلا من الانتقاص
من هيبته أو انتقادها، فيسهمون في
ترعرع جبروتها ويصفرون.

٢٠١٠
٣/٢

٤٣